الفصل الثامن

عثمانُ بعدَ وفاةِ الرسُول

وفاضَتْ روحُ الرسُول ﷺ إلى خالقِها، وتُوفي الرسُول ﷺ فحزنَ عليه عثمان حزناً شديداً، وبكَى دمْعاً غزيراً. وقد كانت منه مواقف عظيمة ـ رضي الله عنه ـ بعد وفاة الرسول ﷺ ومن ذلك ما كان في خلافة أبي بكر الصديق.

في خلافة أبي بكر:

ففي خلافَة «أبي بكر الصديق» قحطَ الناسُ إذ أصابهمُ الجوعُ الشديدُ فلم يجدُوا مايأكلونَه، فقال لهمْ «أبو بكر»:

– «إن شاءَ اللَّه لا تُمْسُون غداً، حتى يأتيَكُم فرجُ اللَّه».

الصديقُ أولُ خليفة للمسلمينَ بعدَ الرسُول ﷺ يخبرُهُم بنفسِ المؤمنِ الواثقةِ بالفرجِ من ربِّها، حتى يكونَ فرجُ اللَّهِ قد حلَّ عليهمْ.

وجاءَ صباحُ اليوم التالِي، وكانَ اللَّه قد شاءَ أن تنتَهي هذه الأزمَة، فلقد قَدِمَتْ علَى المسلمينَ قافلةٌ لعثمان محمّلةٌ بالخيراتِ الكافيةِ لسدِّ حاجةِ المسلمينَ والذهابِ بالضيقِ الذي عمَّ بلادَهُم، فما إنَ رآه التجار حتى سألُوه

أن يبيعَهُمْ قافلتهُ حتى يستطيعُوا أن يتاجرُوا ويبيعوا فإن ما لديهمْ من تجارةٍ قد نفدَ أو كادَ.

استمعَ إليهمْ «عثمانُ» ثم قال:

– «كم تُربحُوني»

إنه يسألهمْ عن الربحِ الذي سيعودُ عليهِ إذا باع هذه التجارةَ لهمْ، قالوا:

–«العشرةَ اثني عشرَ».

إنهم سوفَ يعطونَه في الشيءِ الذي يُباعُ بعشرة اثني عشرَ أي أنهمْ سوفَ يزيدونَ دينارينِ في كلِّ ما يستحقُّ عشرةَ دنانيرَ. فقالَ «عثمانُ»:

– «قد زادَني».

إنهُ يعلمهمْ بأنَ هناكَ مَنْ أعطاهُ سعْراً أفضلَ مما يعرضونَ عليه، وخيِّلَ إليهم أنه يقولُ ذلكَ كيْ يساومهمْ، حتى يزيدوا في السعرِ، فقالوا:

– «فالعشرةُ خمسةَ عشرَ».

زادوا ثلاثةَ دنانيرَ، فإنهمْ سوفَ يشترونَ منه الشيءَ الذي يساوي عشرةَ دنانيرَ بخمسةَ عشرَ ديناراً، فقال «عثمانُ» ثانية:

– «قد زادني».

إنه يكررُ بأن هناكَ من سيشتَري منه بسعرٍ أفضلَ، فتعجبَ التجارُ، إنهمْ يعرضونَ عليه أعلى الأسعارِ، وهم كلُّ تجارِ المدينة، فقالوا له:

– «مَنِ الذي زادكَ، ونحنُ تجارُ المدينة؟».

إنهمْ يتساءلون في حيرةٍ، فما من تاجرٍ إلاَّ وهوَ حاضرٌ معهم، فَمَنْ ذلك الذي سبقهمْ إلى «عثمانَ» واشترى منهُ بسعرٍ يعلُو على السعرِ الذي يريدونَ الشراءَ به، وهو سعرٌ مرتفع يكفلُ له الربحَ الكثيرَ، وهمْ لا يجدونَ بضاعةً غيرَ بضاعتِه كَي يشتروهَا، إنها تجارَة رابحةٌ لدَى الطرفينِ، كذا خُيِّلَ إليهمْ لأنهمْ لم يكونُوا قد استمعُوا إلى إجابَة «عثمانَ» بعدُ، تلكَ الإجابة التي ذكَّرتهم بدرسٍ غالٍ جداً فلقد قال «عثمانُ»:

– «إنه اللَّه قد زادَني بكلِّ درهَم عشراً، فهل لديكمْ أنتمَ مزيد؟».

لقدْ تركهم «عثمانُ» مذهولين من جوابه وانصرفَ عنهم وهو يقولُ:

– «اللهمَّ إني وهَبْتُها لفقراءِ المدينةِ بلا ثمنٍ، وبلا حسابٍ».

لقد تركَهُم ومَضَى، تركَ عرضَهُم الذي يرونَهُ سخياً وفيراً، ولجأَ إلى ربهِ معلناً أنهُ لا يريدُ إلا العرضَ الأفضلَ، إنهُ سوفَ يتخلَّى عنِ البضَاعَةِ في مثلِ هذا الوقتِ الذي يشتهي فيه التاجرُ الفرصةَ كيْ يكنزَ البضاعةَ، ويزيدَ من سعرها، يروحُ يحتكرُهَا طمعاً في أعلَى سعرٍ، في هذا التوقيتِ يجيءُ عرضُ «عثمان» رفضَ المال، وتبرعَ بكلِّ بضاعتهِ في سبيلِ اللَّهِ من أجلِ إطعامِ

الفقراءِ، إنه الرجلُ الذي جهزَ جيشاً في عهدِ «الرسولِ» ولم يسترد شيئاً مما جهَّزَ بهِ الجيشَ المتجهَ إلى «تبوك»، وهو الرجُل الذي تعودَ على الإنفاقِ في سبيل الله؛ ولذا فقد أعطى بضاعتهُ لأنهُ يعلمُ أن اللَّهَ سوفَ يضاعفُ لهُ الجزاءَ، وأنه سيجدهُ مدخراً في صفحةِ أعمالهِ في الآخرةِ، ويا لَه من سعرٍ ربحهُ عثمانُ! ويا لهُ من درسٍ تعلَّمهُ تجارُ المدينةِ! وهنيئاً لعثمانَ ما فازَ به لدَى ربِّه من ثوابٍ، وهنيئاً له أجرهُ، وثوابهُ عن كلِّ البطونِ الجائعةِ في المدينةِ التي باتتْ شبعانةً تحمدُ اللَّهَ وتدعُو بالخيرِ لعثمانَ.

«عثمان» ثالثُ الخلفاءِ الراشدين:

كانَ عثمانُ من المخلصينَ في حياةِ «الرسولِ ﷺ» أثبتتْ كلُّ مواقفهِ ذلكَ؛ لذلكَ اختارهُ الرسُول لكتابةِ الوحي، فكانَ واحداً ممن يملِي عليهمْ صلى الله عليه وسلم القرآنَ الكريمَ ليخطُّوهُ، وتلكَ منزلةٌ أخرَى عظيمةٌ نالهَا عثمانُ ولم ينلها إلا كلُّ مخلصٍ أمينٍ، وهناكَ منزلةٌ ثانيةٌ نالهَا «عثمانُ» في حياةِ الرسولِ ﷺ وهي:

أنه كانَ يقفُ ذاتَ يومٍ علَى «جبلِ أحدٍ» مع رسول الله ﷺ هو، وأبوُ بكرٍ الصديقُ، وعمرُ بن الخطابِ، فاهتزَّ بهم الجبلُ، فضرب الرسولُ الجبلَ بقدمهِ قائلاً:

«اثبتْ أُحُد. فإنما عليكَ نبيٌّ، وصِدِّيقٌ، وشهيدَانِ».

فاسْتَقرَّ الجبلُ لما سَمِعَ أمرَ الرسُولِ ﷺ، وأمَّا الصديقُ فهوَ أبو بكرٍ وقد نالَ هذه المكانةَ يومَ «الإسراءِ والمعراجِ» حينمَا صدَّقَ الرسولَ في كلِّ ما أخبَرَ به، بقيَ عمرُ بنُ الخطاب رضي اللَّه عنه وعثمانُ وهمَا الشَّهيدَانِ، وهذه بُشْرَى جديدةٌ تضاف إلى رصيدِ عثمان من «الجنَّة» و«كتابةِ الوحي» و«الكرمِ الشديدِ» و«الحياءِ» و«حبِّ الناسِ لهَ» ثم «الشهادةُ».

استشهادُ عمر بنِ الخطاب:

بعدَ وفاةِ أبيِ بكرٍ الصديقِ، تولَّى أمورَ المسلمينَ «عمرُ بنُ الخطابِ» فحكمَ بينهمْ كما حكمَ فيهمْ الرسولُ ، وأبو بكرٍ، ولكن بعد مضيِّ عشرِ سنين وستةِ أشهرٍ وأربعةِ أيامٍ[1] على ولايتهِ تحققتْ بشرى له «رسولِ اللَّهِ ﷺ» بالشهادة إذ طعنهُ «أبو لؤلؤةَ المجوسيِّ» فاستشهدَ، وأخذَ المسلمونَ يتشاورونَ فيمنْ يتولَّى الحكمَ من بعدهِ، وكانتْ هذه الشورَى أمامَ عمرَ قبلَ أن يموتَ.

وانحصر الصحابةُ الذين يمكنُ أن يتولَّى أحدُهم الخلافةَ بعدَ «عمرَ» في أحدِ الستةِ الذينَ اختارهُم عُمر، وهم: عثمانُ بنُ عفانَ، وطلحةُ بن عبيدالله، والزبيرُ بن العوامِ، وسعدُ بن أبي وقاصٍ، وعبدالرحمنِ بنُ عوفٍ، وعليُّ بن أبي طالبٍ، واختارَ الصحابةُ عبدالرحمنِ بن عوفٍ ليختارَ أحدهُم،

١- البداية والنهاية لابن كثير ٧/ ١٤٣ .

ذلك لأنَّ «عمرَ بن الخطابِ» لم يوُصِ بالخلافةِ لأحدٍ من بعدهِ ولكنهُ أوصى أن يختار المسلمونَ الخليفةَ من بينِ الستةِ المذكورينَ في مدة ثلاثةِ أيامٍ، فلا يجيءُ اليومُ الرابعُ إلا وهمْ قد حددُوا الحاكمَ عليهمْ.

مهمَّةُ «عبدالرحمنِ بن عوفٍ» الخطيرةُ:

وكانَ على الصحابيِّ الجليلِ أن يقومَ بهذهِ المهمةِ الخطيرةِ في المهلةِ التي أوصَى بهَا الخليفةُ الراحلُ، وهي مهمةٌ عظيمةٌ، يعرفُ «عبدالرحمن» أنَّهُ محاسبٌ عنها أمامَ اللَّهِ يومَ القيامةِ، ولقدْ كانَ هو نفسُه أحدَ المرشحينَ للخلافةِ، فاستعفىَ، وأبعد نفسهُ، زهداً منهُ وخوفاً من حسابِ اللَّهِ، وكذلكَ فعلَ «سعد بن مالكٍ» المعروفُ بـ«سعدِ بن أبي وقاصٍ» وكذلكَ استعفَى «الزبيرُ» عنهَا لـ«عليٍّ» وكانَ سادسَ هؤلاءِ المرشحينَ «طلحةُ بن عبيداللَّهِ» وقد كانَ غائباً عن المدينةِ في ذلكَ الوقتِ. كانَ هؤلاءِ الستةُ هم المرشحينَ لتولِّي الخلافةَ طبقاً لثناءِ الرسولِ عليهم قبلَ موتهِ بأيامٍ قليلةٍ.

ولقد انحسَرَ الاختيارُ بينَ «عثمانَ بن عفانَ» و«عليٍّ بنِ أبي طالب» وكان عَلَى «عبدالرحمنِ بن عوفٍ» أن يختَارَ أحدهُما، فنهضَ رضيَ اللّه عنهُ لأداءِ هذهِ المهمةِ العظيمةِ، فأخذَ يستشيرُ الناسَ، ويجمعُ رأيَ المسلمينَ قادتهم وعامتهمْ، وكان ينفردُ ببعضهم فيتحدثُ معهُ، ويقابلهُم اثنينِ اثنينِ، يقومُ بتلكَ المهمةِ سِراً وعلانيةً، حتَّى لقد وصَلَ رضيَ اللَّه عنهُ إلى النساءِ

المحجباتِ في البيوتِ، وسألَ الأولادَ الصغارَ الذينَ يتعلمونَ في الكتاتيبِ، ولم ينسَ أولئكَ الذينَ يزورونَ المدينةَ، فخرجَ إليهِم قبْل أن يغادروهَا فسألهُم، وحرصَ على الاستماعِ إلى إجابتهِم.

كانَ «عبدالرحمنِ» يستحضرُ في ذهنه الأمانةَ، وموقفهُ أمامَ اللَّهِ، وسؤالهُ لذلكَ كانَ شديدَ الحرصِ ولم يكتفِ بكلِّ ذلكَ بل استدعَى عثمان وعلياً فجاءَا إليهِ ثُمَّ قال لهما:

– «إني سألتُ الناسَ عنكمَا، فلمْ أجدْ أحَداً يعدلُ بكمَا أحداً».

ثمَّ بحكمةِ القائدِ التي طَالما تعلمهَا «عبدُالرحمن» من «الرسُول» أخَذَ على كليهمَا العهدَ، فعاهدَ عثمانَ إن ولاهُ حكمَ المسلمينَ أنْ يحكمَ بينهمْ بالعدلِ، وعاهدَ «علياً» كذلكَ، وعاهدهمَا إنْ وليَ أحدُهَما أنْ يطيعَ لهُ الآخرُ.

«عبدالرحمنِ» ينهِي المهمةَ:

ارتدى «عبدالرحمنِ» عمامةً على رأسِهِ كان الرسولُ قد ألبسهُ إياهَا قبلَ وفاتهِ، وكذلكَ أحضرَ سيفاً علامةً علَى الحزمِ والدقة في الاختيارِ، وأرسلَ إلَى «وجُوه» –أشهرِ– الناسِ من المهاجرينَ والأنصارِ، ونُوديَ في جميعِ الناسِ بالمدينةِ المنورةِ:

– «الصلاةُ جامعةٌ».

وكذلكَ كانَ فعلُ الصحابةِ كلما كانوا أمامَ أمرٍ خطيرٍ، يختارونَ المكانَ الأمثلَ لاتخاذِ قرارٍ يتوقفُ عليهِ مصيرُ جميعِ المسلمينِ، وهلْ هُنَاكَ أفضلُ من مسجدِ رسولِ اللَّهِ؟

ازدحمَ الناسُ وامتلأَ بهمْ المسجدُ، حتى لم يبقَ لـ«عثمانَ» مكانٌ يجلسُ فيهِ إلا في آخرِ الناسِ، وقد كانَ بطبعهِ رجُلاً شديدَ الحياءِ، ثم صعدَ «عبدالرحمَن» المنبرَ، وكلُّ مسلمٍ إليهِ منتبهٌ، مستمعٌ قد حبسَ أنفاسهُ، ينتظرُ قراره كي يعرفَ الخليفةَ الجديدَ، وجميعُ الأنظارِ ترقبهُ، فدَعَا «عبدالرحمنِ» ربهُ كثيراً ثمَّ قالَ:

– «أيها الناسُ، إنِّي قدْ سألتُكم سِراً وجهْراً، فلم أجدكم تعدلونَ بعليٍّ وعثمانَ أحداً، فقم إليَّ يا عليُّ، فقامَ إليهِ، وأخذ عبدالرحمنِ بيدهِ وسألهُ:

– هل أنتَ مبايعي علَى كتابِ اللّهِ وسُنَّةِ رسولهِ، وفعلِ أبي بكرٍ وعمرَ؟».

فأجابهُ «عليٌّ»:

– «على كتابِ اللَّهِ وسنةِ رسولهِ واجتهادِ رأيي».

وكذلكَ طلبَ «عبدالرحمنَ» من عثمانَ فأجابهُ:

– «اللهمَّ نعَم».

فرفعَ «عبدالرحمنِ» رأسهُ إلى سقفِ المسجدِ ويده في يدِ عثمان وقالَ:

– «اللهُم اسمعْ واشهدْ .. اللهمْ إنِّي جعلتُ ما في رقبتي من ذلكَ في رقبةِ عثمانَ»

لقدْ ولى «عبدالرحمنِ» الذي كلَّفهُ المسلمونَ باختيارِ الخليفةِ لقد اختارَ لتلكَ المهمةِ عثمانَ بن عفانَ.

مُبَايعةُ «عليٍّ»:

كانتْ أولُ يدٍ شدتْ علَى يدِ عثمانَ مبايعةً لهُ بالخلافةِ هيَ يدُ «عليِّ بنِ أبي طالب» وكيفَ لا يفعلُ ذلكَ، ونحنُ أمامَ مسلمينَ من خيرةِ الصحابةِ رضوانُ اللَّه عليهِم، وكيفَ لا يفعلُ عليٌّ ذلكَ؟ وهوَ الذي بشَّرهُ اللَّه بالجنةِ وقالَ عن نفسهِ، وعن عثمانَ أنهمَا منَ المقصودينَ بقولهِ تعالى:

– ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾.

وبايعَ «عليٌّ» أخاهُ فِي الإسلامِ عثمان واجتمعَ الناسُ يبايعونهُ.